تاريخ القطن بمصر

يزرع نبات القطن من عهد بعيد ببلاد الهند ومن ثم انتقلت زراعته غربا الى سواحل بلاد العرب ثم الي شواطئ شرق افريقيا . ولقد اسهب الكتاب فى البحث عما اذا كان القطن معروفا ايام قدماء المصريين فكانت نتيجة هذا البحث عدم الاهتداء بشيء ما الى اليوم .

كان قدماء المصريين مهرة فى الملاحة وكان لهم ثغور علي البحر الاحمر تتجر مع سواحل الهند الغربية ولا مشاحة انهم رأوا استعمال الهنود للملابس القطنية واتوا بشيء منها الى الديار المصرية . بيد انه لا يعلم ان كانوا قد اتوا ببذرته فزرعوها فى بلادهم ام لا . اما مايمكن الجزم بوجوده قدما فهو الكتان ، اذ هو النبات الذى كانت تتخذ منه الثياب وما ماثلها ، وهذا مستنتج مما تركوه لنا من الآثار والرسوم . ومن يعاين هذه الرسوم والآثار لا يجد من بينها دليلا على زراعة القطن وما يتبعه من غزل ونسج ، مع ان قدماء المصريين لم يتركوا شاردة أو واردة الا طبعوها اثرا خالدا من بعدهم ، على اننا بعد لم نعثر الى اليوم فى جملة ماعرف من الآثار علي مايدل علي معرفتهم للقطن اللهم الا بعض بذور يحوم حولها الريب وجدها «روزلينى» فى مقابر طيبه . اضف هذا الى مانعلمه من ان الكتاب الاقدمين قد ذكروا اشهر النباتات المصرية ولم يأتوا بذكر للقطن غير بعض كتابات عزيت الى «بليني» عام ٧٩ بعد الميلاد «وبولاكس» — عام ١٥٠ بعد الميلاد — وهاك ما كتبه بليني فى هذا الصدد

تنمو في الوجه القبلي تجاه بلاد العرب شجيرة يسميها البعض

«جوسبيون» والبعض الآخر «زيلون» ويصنع منها القماش الذي نسميه «زيلينا». وهي شجيرة لها ثمرة تشبه الجوزة داخلها صوف ناعم يغزل الى خيوط، وليس ثم قماش يفوقه نعومة وبياضا وتصنع منه جلاليب محبوبة الى القساوسة والكهنة»

اما بولاكس فقال ـ «هناك صوف يجنى من اشجار فى بلاد الهند وهو كذلك يجنى اليوم بمصر، والملابس المصنوعة منه تشبه الثياب الكتانية غير انها اكثر سمكا. ولاشجار هذا الصوف ثمار تشبه الجوزة منقسمة الى فصوص ثلاثة واذا ماجف الغلاف الخارجي وانقسم شطرين استخرج منها مايشبه الصوف ويستعمل فى صناعة القماش»

والوصف الذى كتبه بولاكس منطبق على الحقيقة فلقد ذكر انفلاق الغلاف الثمرى الخارجي الى ثلاث وشبه لوزة القطن بثمرة الجوز

ولقد حدثنا يانس ان كتابتهما عن مصر ماهي الا حواش دونت على نسخهما الاصلية فى القرن الرابع عشر بعد الميلاد

وفى القرون الوسطي نشر المسلمون زراعة القطن بامتداد فتوحاتهم فى جميع اصقاع افريقيا شمال خط الاستواء ولهم الفضل ايضا فى ادخال زراعته في الاقطار الاوربية فصناعة الملابس منه. وقد ابان باسهاب ابو زكريا ابن العوام من كتاب القرن الثاني عشر بعد الميلاد طريقة زراعة القطن. وذكر ان العرب ادخلت زراعته بجزيرة صقلية حين كانت تحت حكمهم فى القرن التاسع الى القرن الحادى عشر بعد الميلاد

وذكر ابو العباس النباتي الذي زار مصر عام ١٢١٦ بعد الميلاد أن زهرة البامية تشبه زهرة القطن ولا يعلم ان كان القطن قد ذكر

لاستغلاله أم للزينة. ومما هو حقيق بالذكر أن عبد اللطيف البغدادي وهو من كبار كتاب القرن الثالث عشر بعد الميلاد لم يذكر القطن بتاتاً عند زيارته لمصر. وهذا مما يبعث الانسان على الاعتقاد بان القطن كان مجهولا في ذلك الحين. على أن البعض يقول أنه لم يذكره عند ما كتب عن النباتات المصرية لانه قد رآه قبل زيارته لمصر فلم يسترع نظره ورغما من أنه لم يتقيد بذكر جميع النباتات الا أنه دون ما امتازت به مصر عن غيرها من سائر الاقطار

وقد ذكر في مذكرات «ب . بيلون» الرحالة الذي جاب بلاد العرب ومصر سنة ١٥٤٦ ـ ١٥٤٩ وهي مذكرات كتبها عن رحلته

«وبروسبر البينس» الذي زار مصر سنة ١٥٨٠-٨٣ هو أول من رسم القطن الذي كان منزرعا في الحدائق بمصر كشجرة للزينة في كتابه المسمى «النباتات المصرية» . ولقد كتب فاسنج وهو الذي خلف « البينس » في تدريس النبات بمعهد بادوا فقال : أطلق بروسبر على نباته اسم جوسبيم أوربوريم وهو القطن (شجرة معمرة ليست حشيشية)

ولقد ذكر «فورسكال» الذي نزل بمصر عام ١٧٦١ ـ ٦٢ القطن من ضمن الاشجار الوارقة الظلال

وبرهن « السير جورج وات » على أن ما وصفه « فورسكال » بانه جوسبيوم أربوريوم ـ انما هو جوسبيوم هربالك ـ ولقد ذكر فورسكال في مادته الطبية عن القطن الاحمر أنه يأتي من رشيد وانه يستعمل في مكافحة الطاعون

اما نموذج « دهليل » فهو محفوظ في متحف التاريخ الطبيعي بباريس

وليس له ثمار ومذكور أنه يعلو الى عشرين قدما

قطن «جوميل»:

كان جوميل هذا مهندسا وحصل علي القطن المعروف باسمه سنة ١٨٢٠ ميلادية من حديقة محو بك ببولاق مصر. وهذا القطن من صنف جوسبيوم فيتيفوليوم وهو النبات الذى رآه «دەليل» ولا يمكن معرفة مصدر هذا القطن، فبعضهم يقول أنه آت من الهنداو سيلان أو السودان الخ. ومن المحتمل كثيرا أنه لم يستورد ايام جوميل ولا بد أن يكون بالبلد من مدة كبيرة. ويؤيد ذلك أن «منجن» كتب سنة ١٨٢٣ ان القطن أخذ من حدائق القاهرة المغروس فيها كشجرة يستظل بها وهذا مؤيد لرأي دەليل الآنف الذكر من أنها ضمن أشجار الاستظلال

ولقد أرسل «فيجاري بك» نماذج من قطن جوميل الى تودارو، وما زالت هناك. ومن المحتمل جداً أن يكون قطن جوميل فى ذلك العهد (قبل استيراد القطن لزرعه زراعة واسعة بأربعين سنة) قد تغيرت طبيعته ولقد كانت كلمة ـ جوميل ـ هي اسم النوع لجملة أصناف من القطن المصري. ولا يزال الفرنسيون يستعملون كلمة قطن جوميل للدلالة علي الميت عفيفي، ومع ان وصف قطن جوميل بأنه أبيض اللون بيد أن المظنون انه كان اسمر. وذلك مبنى على رأى «لوم» حيث ذكر أن قطن جوميل يشبه قطن برنامبوكو. وكانت البذور تزرع بعيدة عن بعضها بمسافة متر وتترك الي أن تثمر وتصبح شجرة تستثمر عدة سنين. علي انه ظهر ان أحسن محصول هو ما يمكن جمعه حالة صغر النبات ومن العجيب ان أبا حنيفة قد ذكر هذه الحالة منذ نيف وألف عام. وتزرع بذرة قطن جوميل

في مارس وتعطي محصولا في السنة نفسها. وهذه الحالة تبين أن القطن كما ذكر مستر و. لورنس بولز هو غير قطن نيام كما ذكر سير جورج واط، لان الاخير لا يعطي محصولا جيداً في مصر وفلسطين، ولا يزهر حتى شهر سبتمبر من السنة الأولى من زراعته. وينتج بعض لوزات تفتح في السنة الثانية من زرعه

ولما ان نجح المسيو جوميل في تجارب زراعة قطنه الجديد خصص المرحوم محمد علي باشا مساحات واسعة لزراعته، وتكبد نحو ستة ملايين من الجنيهات فى ادخال زراعة قطن جوميل والاقطان الأخري المستوردة بالبلاد المصرية. ولم يكتف بزراعته وبيع محصوله بل أنشأ كثيراً من المعامل لغزله ونسجه. فصرف مبالغ وافرة فى انشاء المعامل سنة ١٨٢٦ وأصبح بالبلاد المصرية ٤٤ معملا مقسمة الي ثلاثة أقسام، وكل قسم له مفتش عام. وكان المفتشون يتبارون فى الاقلال ما أمكن في المصاريف. ولكن كثرة الاتربة في طول البلاد وعرضها وعدم تدرب الصناع كان له أثر سيء علي الآلات الدقيقة، وسبب لها كثيراً من التلف. ثم وجد أخيراً ان نسج الاقمشة فى مصر كثير الكلفة، فما حلت سنة ١٨٣٣ الا وقد أغلقت أغلب المعامل

ولقد انتشرت زراعة قطن جوميل في طول البلاد وعرضها. ولقد ذكر «ساندارز» عام ١٩٠٣ (صدر قطن جوميل لأول مرة سنة ١٨٢٢ فأرسلت منه مقادير الى تريستا ومرسيليا. وفي عام ١٨٢٢ وصلت الى ليفربول بعض غرائر بيع منها الرطل من ١١ ـ ١٣ بنسا). ولقد ذكرت مجلة «الريفيو» انه عند وصول القطن المصرى الى ليفربول وجفت القلوب رعبا

واضطربت الافئدة زعراً حتي أن عمدة الناحية المذكورة استدعى الاطباء لأخذ رأيهم فيما يتخذونه من الاحتياطات لمنع العدوى. وكادوا يقيمون محجراً علي كتب من ليفربول . ولما ان اكثر من زراعة القطن هبطت الاسعار الي ٨ـ٩ بنسات للرطل سنة ١٨٢٧ . فكان لهذا الأمر أثر سيء ووقع شديد في نفوس الفلاحين. ومن ثم قلت عنايتهم باكثاره . أضف الى ذلك الحروب التى نشبت اذ ذاك في السودان والشام مما سبب استدعاء أغلب الايدى العاملة للقيام باعباء الحرب، ولكن من حسن الطالع جاءت ظروف أخري بعد ذلك ساعدت على كثرة زراعته ، منها تقليل الضرائب عليه من ١٠ فى المائة الي ١ فى المائة سنة ١٨٤٩ وكذلك الحرب الامريكية حتى وصل ثمن قنطار القطن الى ٥٠ ريالا .

ولقد استورد قطن «سى ايلاند» عام ١٨٢٦ بواسطة محمد على باشا الذي أعجب بارتفاع سعره فكان ثمن قطن السى ايلاند سنة ١٨٢٧ فى ليفربول ١٣ـ١٧ بنسا للرطل وقطن جوميل ٨ ـ ٩ بنسات للرطل ، فكان من أثر ارتفاع سعر الأول ان أقبل المزارعون علي زراعته فكانت بذوره تستورد من حين لحين لبقاء النوع سليما . وقد استورد اسماعيل باشا كميات كبيرة من بذوره سنة ١٨٧٣ وزرعت بأراضى الدلتا . واذا ما قورن هذا القطن ببقية الانواع الأخرى المصرية لوجد أنه ينضج متأخراً عنها ولقد ظهرت منه أنواع عديدة كالعباسى واليانوفتش .

القطن المصرى الحديث . منشؤه كان (شجرة ده‌ليل) أو قطن جوميل وهو النوع الذى منه قطن السى ايلاند . ولقد اكتسب القطن المصرى الحديث قوة النماء ولون التيلة من النوع الأول واكتسب طول

الشعرة مع متانتها من النوع الثانى . وهو يستعمل فى المصنوعات الدقيقة والخيوط وكل مايحتاج الي متانة . وهو ولا ريب أحسن قطن فى العالم اللهم الا اذا أستثنيا قطن ـ السى ايلاند ـ المحدود الكمية . ويفقد القطن المصري هذه الميزات اذا زرع فى غير بلاده لأن المناخ وقوة الأرض واحتوائها على طمي النيل وانقطاع المطر صيفا ثم الرى المنتظم وقلة أجور العمال ـ لكل ذلك أثر عظيم فى أن تكون مصر نموذجا جيداً لاخراج مثل هذا القطن

ابراهيم عثمان

مساعد فنى بقسم البساتين